البارون المزيف

زهيرة البيلى

عاش الكهنة والمسئولون عن القصور فى النمسا حالة من الفزع. كان البوليس خلالها على أهبة الاستعداد. ففى عام ١٩٦٨ تمت مجموعة من السرقات الجريئة من الكنائس والكاتدرائيات والقصور الأثرية واستولى اللصوص على كميات من التماثيل واللوحات الثمينة.

تميز عمل هؤلاء اللصوص هذه المرة بالدقة والتذوق الفنى الفريد. الشىء الذى جعل الناس يظنون أن الأمر لايتعلق بسرقات عادية. فقد استولى اللصوص على لوحات نادرة أبطونة من جزيرة «كريت» وتحف وتماثيل نادرة هذا النوع والاختيار كشف عن شخصية لصوص هواة متميزين. الشىء الذى جعل تجار الأثريات وبائعى التحف بسويسرا يعرضون لعملائهم مجموعات من أجمل التحف الدينية. معظم هؤلاء التجار لايعرفون مصدر هذه البضاعة الأثرية. ولكن لم يعلمهم هذا من المسئولية الجنائية.

اذاعت سكرتارية الانتربول قائمة بالتحف المسروقة. وتم العثور على بعض منها عند بائعى التحف بمدينة «زيورخ» الذين لم يتورعوا عن مناقشة الأسعار وتجتمع مع الملاك المتساوين الأصليين. وعندما تم القبض أخيرا على الرأس المدبر لتلك العمليات التى وصلت قيمتها إلى مليار من المارکات. اكتشف رجال البوليس أنه يلقب نفسه وبدعابة «بارون الفحم». هذا لأنه كان يعمل منذ عدة سنوات فى تجارة الفحم. أما ظروفه الاجتماعية ولأنه مطلق تطلبت منه مصروفات غير عادية. خاصة أن تاجر الفحم لم يشأ أن يحرم نفسه من الحياة الرغدة. وبعد محاولات عديدة جعلته يتأرجح دائما بين الخير والشر. خطرت بباله فكرة إنشاء أو تكوين شركة كان أول استيرادها المتواضعة كميا صغيرا عبارة عن مرشد سياحى. ضم هذا الكتيب وصفا دقيقا لأهم وأندر التحف الفنية. التحف التى تختلف بها الكنائس والقصور الأثرية المتساوية. من بين صفحات هذا الكتيب السياحى اتم البارون اختياره الذى كان عبارة عن لوحات وتماثيل «للعذراء» تتاح بسهل التفاوض بشأنه. كانت هذه هى الصفة أو الصبغة الاجتماعية لعمل تلك الشركة الجديدة الا وهى سرقة التحف والأعمال الفنية النادرة.

بعد أن عمق «البارون» معلوماته بالقراءات المختلفة فى هذا المجال بالذات. قام بالاتصال بأحد شركائه وعن طريق جهاز الاستقبال. أخذ «البارون» يفحص التماثيل الصغيرة ليتأكد مما إذا كانت متناسقة حقا وحتى تتاح بأغلى الأسعار. فقد اشتهر بتخصصه فى هذا النوع من السرقات بالذات. وأثناء القبض عليه بدا البارون» فى غاية الأناقة يدفع بسخاء لستة أو سبعة من العملاء بعد أن حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات. كان يتمتع بالمكر الشديد إذ أنه تصرف كسجين مثالى. وبسبب حسن سيرة وسلوكه تم الإفراج عنه فى عام ١٩٧٣.

ولكن ليستأنف من جديد وبعد مرور عام واحد سرقة التحف النادرة على أوسع نطاق. سرقت فى شهر نوفمبر اربع كنائس فى الريف وفى شهر ديسمبر تم سرقة خمس كنائس فى فينا. وعلى الفور تولى الانتربول إذاعة تلك الأنباء ليعم أوربا كلها. وبالطبع كان «بارون الفحم» هو أول من تم استجوابه.

بدا «البارون» متسما. رقيقا. دمثا متسللا. هذا الرياضى الأشقر. مدير تلك الشركة الكبيرة كان فى الخامسة والثلاثين من عمره أمام البوليس كانت اجاباته دقيقة ومحددة. «انت ترى الآن لادخل فى بيذه العملية ويمكن أن تتأكد من هذا بنفسك ومن شركائى انفسهم. عملى الآن ينحصر فى بيع الفحم والمازوت ومع ذلك فإننى تحت تصرفك».

لم يقتنع ضابط البوليس – الذى كان قصير القامة وبدينا – بكلام ذلك البارون. الذى اشترك معه فى بعض الصفات. كان الضابط انيقا. اشد عصبية من «البارون» نفسه. مليئا بالدعابة - النقيا فى نقطتين أساسيتين هما: الذكاء والدهاء.

خضع سوق التحف المسروقة لنفس قوانين الأسواق الأخرى. فزيادة البضاعة المطروحة أى زيادة العرض ادت إلى إغراق بائعى التحف السويسريين بالتماثيل واللوحات الشىء الذى ادى إلى انخفاض الأسعار.

خا اللصوص إلى أسلوب جديد فى التسويق. إلا وهو إعادة بيع التحف المسروقة لأصحابها الأصليين. وهذا السبب دق جرس التليفون فى صباح أحد الأيام فى منزل أحد الأساقفة. ليساوم على بيع لوحة مشهورة سرقت من الكاتدرائية التى يعمل بها. طلب اللصوص فى هذه اللوحة حوالى مائة وأربعين الف مارك وهو مبلغ يعتبر عشر قيمتها الحقيقية. وهنا أصيب الأسقف بالدهشة وقال ان اللوحة ملك للأسقفية وأنه ليس له الحق فى تفاوض كهذا. وأغلق الأسقف سماعة التليفون فى غضب. وتأكد الشك من أن عملية إعادة بيع التحف لأصحابها لايعتبر أسلوبا ناجحا.

فى شهر فبراير عام ١٩٧٦ أصبحت القصور المتساوية هدفا للصوص. ونظمت عمليات الغزو للإستيلاء على كميات من الأسلحة المتساوية النادرة. وامتلأت السوق السويسرية بالتحف. والدروع والخناجر المرصعة بالماس. ولم يكن للبارون حقيقة أى دخل فى هذه العمليات الأخيرة.

ولكن مع ذلك سمح «البارون» لرجال البوليس بتفتيش المخازن التابعة لشركته الكبيرة.

كان الضابط القصير على علم أن «البارون» ليس بغباء بحيث يحتفظ بغنائمه الثمينة داخل مخازن الفحم. فلابد أن هذه المسروقات بعث بها خارج الحدود لذلك لم يبق أمام البوليس سوى الاتصال بالسكرتارية العامة للانتربول.

فى مساء يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٩٧٧ توفى حارس احد القصور فى جنوب شرق النمسا خدمته وأثناء قيامه بالدورية على دراجته البخارية سمع صليلا وسط الظلام فجرى فى اتجاه فناء القصر فتبين أن الشبح لرجل يهرب فى اتجاه سلم حشى كبير لمت على الحائط. اخرج الحارس سلاحه واطلق طلقتين فى الهواء ليطمئن نفسه فقط. وانضم لهذا الشبح رجل آخر. وتسلقا بسرعة السلم ثم قفزا بواسطة حبل إلى الجانب الآخر من الحائط والذى كان على ارتفاع عشرين مترا. تاركين وراءهما كميات من الأسلحة التاريخية وبعض أدوات من معدنيها. وكل مايلزم لصوصا فى سرقة.

استجوب الضابط القصير فى اليوم التالى الحارس واخذ ينصت لحديثه بكل دقة وانتباه. استمع إلى وصف كامل عن اللصين. كان الحارس قد لاحظ عشية هذا الهجوم واحدا منهم والأكثر طولا أثناء الزيارة العادية للجمهور. استرعى انتباهه لأنه كان يضع أنفه فى كل كبيرة وصغيرة إلى درجة أن الحارس اضطر ولعدة مرات إلى توجيهه إلى الطريق السليم بعيدا عن المناطق الممنوعة. كان رجلا ضخما. جسمه ملىء بالعضلات شعره أشقر يميل إلى الحمرة. فجمه تبين أنه من سكان فينا.

قام الضابط القصير بزيارة مفاجئة لكل التجار الذين يبيعون الأدوات الرياضية فى فينا ليعرف إذا كان قد ذهب إلى هناك أحد ينطبق عليه هذه الأوصاف. وهنا أخبره أحد التجار أنه منذ خمسة عشر يوما باع معدات كاملة للتسلق لرجل ضخم له شعر أحمر تقريبا.

وفى دكان آخر تذكرت البائعة أنها فى نفس الفترة تقريبا. جاءت امرأة شابة تحمل طفلا صغيرا واشترت معدات وأدوات ممائلة لزوجها. وكان بالفعل أحد أصدقاء «بارون الفحم» – ضخما شعره أحمر – وكان أحد شركائه قد رزق توا بمولود وأمام هذه المعلومات الجديدة فرك رجل البوليس القصير يديه مبتهجا. فى هذه الأثناء قامت نقط حدود سويسرا والنمسا بتفتيش السيارات التابعة لشركاء وأصدقاء البارون حتى جاءت إحدى هذه السيارات التابعة للشركة الكبيرة وبداخلها ثلاثة رجال فى حوزتهم كميات من الأسلحة القديمة الأثرية والنادرة. ولكن عندما حاول ضابط البوليس – وفى مكتب البارون – شرح أسباب هذا القبض لم يبد على «البارون» القلق أو الدهشة. ولكنه سأل ببساطة إذا كان الأمر يتوقف عند الاستجواب أم الاعتقال وهنا أخرج «البارون» من درجه حافظة صغيرة بها بعض المتاع اللازم.

بدا الضابط القصير حائلا. أخذ يتأمل هذا البارون» الواثق من نفسه ولكن مع ذلك حدثته نفسه أن الأمر لم ينته بعد فأطمئنان «البارون» جعله يتأكد أنه أعد حقائبه واستعدادات مدبرة ومحكمة.

وبالفعل وبعد عدة أيام. فطن رجال البوليس إلى أن سرقة الأسلحة القديمة قيمتها عالية وقد تمت أخيرا سرقة أحد القصور الأثرية. وتوجه الضابط المسئول عن التحقيق على الفور إلى أسفل الصخرة الوعرة حيث ارتفع القصر الكبير. كانت الجدران سميكة يبلغ عرضها حوالى مترين. عرفت بحصانتها. فقد سبق أن قاومت عدة مرات هجمات الأتراك. ولاحظ رجل البوليس فى أعلى الجدران فتحة كبيرة هى إحدى النوافذ حيث دخل اللصوص. الشىء الذى يوضح أن اللصوص معتادون على هذه العمليات ويتحملون الدوار. فلابد أنهم أناس ماهرون حقا. استطاعوا الدخول إلى هذا القصر الذى لايقهر. والاحتمال الوحيد أن واحدا منهم أثناء الزيارة المعتادة للجمهور قد تخلف فأغلق عليه الباب. وفى المساء فتح النافذة لباقى افراد العصابة شركائه الذين نجحوا فى

تسلق الصخرة العالية وبواسطة منظار دقيق أخذ رجل البوليس يفحص آثار أقدامهم وبصعوبة أكتشف رجل البوليس ومن على منحدر توافق عرضه عشرون سنتيمترا فقط آثار أقدام فوق هذا المنحدر تقدم اللصوص بصعوبة تحت النافذة المفتوحة. ومن هذا المكان الوعر تسلقوا حافة النافذة ومنها إلى الفناء الداخلي للقصر. وبعد أن استخدموا معداتهم الكاملة نجحوا في فتح الأبواب الضخمة حتى وصلوا إلى قاعة الأسلحة. كان من الواضح أنهم استكشفوا المكان من قبل. فقد عمل اللصوص كخبراء إلى درجة أنهم نجحوا في نقل واجهة زجاجية كاملة دون ترك أي خدش أو أثر. كانت الغنائم ضخمة هذه المرة. عشرات من الأسلحة يرجع تاريخها إلى القرن السادس والسابع عشر مجموعات نادرة من التحف بلغت قيمتها حوالي مليون مارك.

حقيقة إن الضابط القصير لم يصب الدوار الا أن حيرته بدت مضاعفة.

أولا : كان من المستحيل على الشركة الكبيرة أن تستمر في عملها أو نشاطها بلا مدير « فالبارون » وحده هو الذي يتمتع بالذكاء المطلوب. أما الباقي فكانوا من اللصوص العاديين الذين تنقصهم القوة والحزم.

ثانيا : بعد أن أغلقت الحدود مع سويسرا وحكمت عمليات التفتيش ساد السوق كساد فعلي. وخاصة بعد أن الحرق بالبضاعة المسروقة. فأين إذن يكمن الثأر ؟

جاءت إشارة عاجلة من انتربول واشنطن تفيد أن امريكيا ثريا من هواة جمع التحف النادرة – هذا الأمريكي مشكوك في نزاهته – غادر الولايات المتحدة في طريقه إلى النمسا. سافر دون أن يعلن أسباب رحلته. أوضح أنه قد عرضت عليه لوحة شهيرة تبلغ ٨٠٠ ألف دولار. ولكن من هم هؤلاء الذين عرضوا عليه اللوحة ؟ فلا أحد يعرف هذا ؟

أما اللوحة فلم يكن لها مثيل في السوق. واختلفت تماما عن اللوحات الثلاث التي سرقها « البارون » منذ عشر سنوات. والتي مازال يحتفظ بها باسم شركته الكبيرة. وحقيقة أن البوليس لم يعثر أبدا على هذه اللوحات وكذلك الأيقونة الشهيرة. الشيء الذي يوضح أن للشركة مخازن خاصة مجهولة

ومقارنة قائمة الانتربول باللوحات المسروقة التي بيعت أو تم شراؤها بالفعل. نلاحظ أنها لاتمثل سوى جزء صغير أو عشر المسروق كله. وهذا يعني أن مخزون هذه الشركة يبلغ مليارات ومليارات أي تسعة أعشار المتبقي من التحف. اذن فالعمليات كلها لم يقم بها لصوص صغار. ولكن شركاء « للبارون » استمروا في العمل من بعده. أقام الثري الأمريكي بفندق هيلتون حيث تحت مراقبة تليفونه عن طريق رجال الأمن النمساويين حتى جاءت مكالمة أثارت انتباه الضابط القصير بعد عدة عبارات عادية طالب الثري الأمريكي من محدثه تحديد موعد حضور الزائر مستفسرا عما إذا كان سوف يأتي بمفرده. أو إذا كان سيحضر معه المواد المطلوبة. وأوضح الثري أنه لايستطيع تسليم مبلغ ضخم إلا لرجل مهم ومسئول. وبعد أن طمأنه المتحدث انهت المكالمة.

نجح البوليس في تحديد مكان المكالمة التي جاءت من أحد الملاهي التي كان يتردد عليها « البارون » أما الساقي أو الوسيط بين الثري الأمريكي فكان معروفا من قبل البوليس كهارب من العدالة. وعلى الفور قرر الضابط القصير احتجازه وكانت لديه الحجة المناسبة.

في الساعة السادسة والنصف عندما هم الساقي بركوب سيارته. قبض عليه رجال الأمن في الطريق العام. فحطم زجاج سيارته محاولا الهرب. وسط الزحام لكنه كان مطوقا من كل جانب. وكانت اللوحات الثلاث في حقيبة سيارته. وفي مركز البوليس انهال الضابط القصير على الساقي بالأسئلة. مصرا على معرفة هذا الزائر الذي يتوجه في موعده إلى فندق هيلتون. وعندما سمع رجل البوليس باسم « باكمان » لم يصدق نفسه وتصور أن الساقي يسخر منه فكيف يدعي أن شخصية مرموقة على اتصال بلص مثله. لص من الدرجة الثالثة ؟ !

هذا الباكمان « أنشأ في عام ١٩٦٦ شركة مؤقتة. ثم كون شركة كبرى متخصصة في المعدات الفنية الهندسية. حيث عمل تحت ادارته الفا عامل. ثم كون شركة تساوي للنقل والطيران. تملك طائرة « جيت » ومنزلا في باهاما وفيلته في فينا فاخرة وبذخ وعلى نفس طريقة أفلام جيمس بوند. اعتاد على اقامة الحفلات الفاخرة التي يحضرها علية القوم من رجال الاقتصاد والسياسة من الأساقفة ومن نجوم السينما. دون أن يعرفوا أو يشعروا أن هناك كاميرات وميكروفونات خفية تسجلهم في كل مكان. مجموعة من الأعمال الفنية تقع تحت حراسة أحدث أساليب الإنذار العصرية. في سن الخامسة والثلاثين عين مستشارا. رغم حيويته وطموحه وذكائه وصل إلى أعلى المناصب في النمسا.

عندما اصر الساقي على أقواله كان يستحق لطمة حقيقية ولكن تراجع الضابط انتظارا لذلك الموعد بفندق هيلتون. وحتى يتأكد بنفسه من تلك الأكذوبة وبعد أن أحس الساقي أنه لامفر من الاعتراف أفضى بكل مالديه.

حكى أنه عندما تم القبض على « البارون » طلب الأخير من الساقي التفاوض لبيع باقي اللوحات. فتولى الساقي شئونه ووجد عميلا جديدا وهو « باكمان » الذي بدت له العملية مسلية. وكان أمام « باكمان » الوقت الكافي فأخذ البضاعة التي دفع فيها عشرات من المليارات من الماركات. على أن يتم هو بيعها شيئا فشيئا وعلى أن يدفع للشركة الكبيرة نسبة معينة وقد تلقى كمقدم حوالي ٩٠٠ مليون مارك. أما الغنيمة فكانت داخل مخازن احد الفنادق في « تيرول » والتي لايعرف مكانها الا « باكمان » نفسه.

في هذا المساء في عام ١٩٧٧ اقام النمساويون حفلة راقصة ساهرة ليلة من ليالي ألف ليلة. اجتمع فيها القسم من الساسة وانتظر الجميع وصول المستشار التجاري النمساوي : المليارديير « باكمان » حتى جاءت سيارته الرولزرويس. لتقف أمام المبنى الضخم ولكن لينزل منها الساقي فقط !.

المستشار حجز في فندق هيلتون لأنه كان على موعد عاجل. لذلك جاء الساقي بقدم الاعتذار !

وفي احدى حجرات فندق هيلتون وأمام دهشة الثري الأمريكي الذي وضع على المائدة ٨٠٠ ألف دولار. جانب اللوحات الثلاث. ظهر الضابط القصير فجأة ليضع القيود الحديدية في يد المستشار صاحب الخامسة والثلاثين سنة. المنفتح الوجه صاحب الشعر الأسود المتموج العينان يشع منهما ذكاء غير عادي. وبقيت بعض التفاصيل المسلية. فهذا الأخير لم يلتق أبدا « بارون الفحم » ليس هذا فقط لأن البارون كان في السجن ولكن لأن الشركة الكبيرة لم تكن في الحقيقة سوى شركة وهمية لا وجود لها.

تصميم محمد ابراهيم